

الشعر والقرآن (رهان المعرفة والإصلاح)، بحث في طبيعة الخطاب الشعري القديم من وجهة قرآنية

The poetry and Qur'an (The bet on knowledge and reform), a research into the nature of ancient poetic discourse from a Qur'anic point of view.

بلقاسم شعبان،¹ جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، chaabanebelka252@yahoo.com

[https:// orcid.org/0006-0024-0046-0025](https://orcid.org/0006-0024-0046-0025)

2025-10-06	تاريخ القبول	2025-02-09	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

تهدف هذه الدراسة للوقوف على مسألة موقف القرآن من الشعر القديم، من منظور معرفيٍّ إصلاحيٍّ، انطلاقاً من إشكالية أساسية مفادها: ما مدى سلامة التصورات الذهنية والأذواق الفكرية التي أنبنى عليها الخطاب الشعري؟، وما مدى إمكانية بناء مجتمع عقلانيٍّ متماسكٍ في ظلِّ ضبابية تصوراتهِ؟ اعتمدت الدراسة على منهج مركّب يجمع بين التحليل والمقارنة والوصف، قصد فحص فرضيات: تميّز القرآن من حيث طبيعته ورهاناته عن الشعر ورهاناته، ضبابية النسق الفكري والجاهلي وضعف منظومته القيمية وتمادي الشعراء في العصبية وإثارة الفتن، ضرورة انصياع الشعر للسياق التاريخي الجديد وللرؤية القرآنية المتعالية، وقد أظهر البحث أنّ القرآن أعاد صياغة رؤية جديدة للعالم، وقدم ضوابط صارمة لمجال الفن والقول ورسم حدوداً جديدة للممارسة الإبداعية. وخلاصة القول: قدّم القرآن معرفة موضوعية قوامها الحقّ والدليل والأثر الأخلاقي والاجتماعي، متجاوزاً فضاء الشعر القديم من حيث المصاداقية والإصلاح، بينما يظلّ هذا الأخير قيمة جمالية وإبداعية، ينتقد القرآن جانبها المضلل دون رفض الفن ذاته.

الكلمات المفتاحية

الشعر؛ التخيل؛ النقد؛ المعرفة القرآنية؛ الوظيفة.

Abstract

This study examines the Qur'an's stance on pre-Islamic poetry from a cognitive and reform-oriented perspective. It addresses a central question concerning the validity of the mental representations and intellectual patterns that underpinned ancient poetic discourse, and the possibility of building a rational, cohesive society when such representations are conceptually unstable. The study adopts a combined approach that integrates analysis, comparison, and description in order to test several propositions. These include the distinct nature and aims of the Qur'anic message compared with poetry, the intellectual and moral ambiguity of the pre-Islamic value system, and the tendency of poets to intensify partisanship and social discord. The findings indicate that the Qur'an reformulated a new worldview, set clear ethical and artistic constraints for speech and creative practice, and criticised only the misleading aspects of poetic discourse while recognising its aesthetic value.

Keywords

Poetry; Imagination; Criticism; Qur'anic Knowledge; Function Keywords.

مقدمة

يتناول هذا البحث فكرة جوهرية طرحها القرآن الكريم في مراحل التأسيسية الأولى حول الخطاب الشعري القديم ويتعلق الأمر بإشكالية مدى سلامة التصورات الذهنية والأنساق الفكرية التي أنبنى عليها هذا الخطاب، ومدى إمكانية بناء مجتمع عقلاني متماسك الأركان في ظل ضبابية هذه التصورات، فقد دقّ القرآن الكريم ناقوس الخطر حول هذه المسألة منطلقاً من أمرين هامين، الأمر الأول: أن الذائقة العربية قد أوغلت في حبّ الشعر والافتتان به واعتراض ما سواه، والأمر الثاني: هو إسرافها في العصبية والذاتية وإثارة الفتن، مستنداً في ذلك إلى طبيعة الرؤية الكونية التي تحملها تلك النصوص التأسيسية، وإلى قدرة الشاعر على توجيه الضمير الجمعي والنفوس البشرية إيجاباً وسلباً، وقد تراوح الموقف القرآني من القضية بين صرامة الرفض لبعض المتون من جهة، وإمكانات القبول والاستثناء من جهة أخرى للبعض منها، وذلك بحسب الرؤية والموضوعات المعالجة، معتمداً في ذلك على رؤية معرفية شاملة وقصدية إصلاحية للحياة البشرية، عمادها تأهيل الفرد أخلاقياً وتربوياً ليؤدي رسالة الحياة بما يخدم مصالحه كفرد وبما يضمن تماسك الجماعة وسلامتها، وعليه ننطلق من فرضيات: منها أن القرآن الكريم ميّز بين النبوة والشعر لحماية الوحي من التزييف والتدليس وخطابات التشكيك، ومنها أيضاً تمييزه بين طبيعة الشعر ورهاناته القائمة على: تمجيد الانتماء القبلي، والتفاخر، وإظهار الفصاحة، مع وظيفة اجتماعية وسياسية لتعزيز المكانة والهيبة أمام بقية القبائل، والمعرفة القرآنية ورهاناتها القائمة على كشف الحقائق الموضوعية، وإرشاد الإنسان نحو المعرفة الحقة، والوعي بالله وبالواقع، وتوجيه السلوك الأخلاقي والاجتماعي بما يخدم المصلحة العامة للمجتمع البشري ككل، وفرضية أن نقده للشعراء في القرآن موجّه بالأساس إلى نماذج محدّدة من الممارسة الشعرية التي اتسمت بالكذب، والمبالغة، والتحريض، وتزييف الوعي القبلي، وانسداد الرؤية وانحصارها في أفق ضيق لا يتعدى نطاق القبيلة .

أهداف الدراسة

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبيان مقدار الضرر الذي ألحقه القرآن الكريم بالذائقة الشعرية العربية القديمة على مستوى التلقي والممارسة، والكشف عن المرتكزات العقلية التي استندت إليها الرؤية القرآنية في فرض منطقتها الجديد، وكذلك تبيان طبيعة المعرفة القرآنية للنفوس البشرية؛ في تملّؤها بين طريقتين متضادين، طريق الغواية وطريق الهداية، وإثبات القرآن لأهمية خطاب الإصلاح للضبط النفسي والعقلي في انفعالات الكائن وتصرفاته في الوجود، وعليه سعي القرآن لتصحيح المفاهيم وفرض الحقائق الثابتة المتعالية في الزمان والمكان.

وذلك بالاعتماد على المنهج التحليلي والمقارنة والوصف

الدراسات السابقة

تناولت الكثير من الدراسات العربية والغربية باختلاف أهدافها مسألة القرآن والشعر، فقد

وردت في :

-المصادر العربية القديمة مثل "البيان والتبيين" للجاحظ وكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي وبعض الآراء المبكرة حول الأدب والشعر ومكانة الشعراء واختلاف طبقاتهم باختلاف الزمان والمكان والجودة، وهي تقرّ بقيمة الشعر وأهميته ثقافيا وتاريخيا.

-كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة : دافع فيه المؤلف عن الشعر واعتبره ضاربا في الفطرة العربية ومكوّنا جوهريا لهويّتها، ودعا إلى الطبع والابتعاد عن التكلّف، وتجاوز المعيار الأخلاقي ضد الشعراء وضرورة النظر إليه بوصفه فنا وممارسة جمالية.

-الباقلائي في كتابه "إعجاز القرآن" تحدّث عن تميّز الخطاب القرآني وتفوّقه على سائر الخطابات البشرية وبالأخصّ على الخطاب الشعري، وتساءل إن كان أهل الفصاحة في زمانه غير قادرين على مجاراته، فكيف يجاريه من هم أقلّ منهم فصاحة وابداعا في أزمنة بعيدة عن رقعة الفصاحة والبلاغة، ممّا يوحي بأن النص القرآني أحرز السبق والصدارة وانتهى الأمر.

-عمر فروخ في كتابه : تاريخ الأدب العربي تناول الإسلام والشعر بشكل مفصل من خلال تقديم نماذج للشعراء في صدر الإسلام.

-طه حسين : نفى في البداية وجود ما يسمّى بالشعر الجاهلي انطلاقا من معايير كثيرة اعتمد عليها في إصدار الحكم، وذلك في كتاب له سمّاه " في الشعر الجاهلي " وأشار إلى أنّ أقدم نص يمكن الاطمئنان إليه هو القرآن الكريم.

-أحمد الشايب في كتابه "أصول النقد الأدبي " تطرّق للكثير من قضايا الشعر من حيث موازنته بخطابات أخرى، من حيث ماهيته وحدّه، وفرّق بينه وخطاب العلم والواقع، واختلافه عن النثر، وبيّن وظيفته وعلاقته بالتنزيل الإلهي ومقامه لشرح الحكم الرّبّانية.

-عبد الجليل الفهداوي في كتابه " أثر القرآن الكريم في تغيير الحياة الاجتماعية في المجتمع العربي (عصر النبوة)" تناول فيه الظواهر التي أبطلها القرآن كالعقيدة والتقاضى إلى السحرة والكهانة ونظرتهم الإرتيابية في النبوة والوحي، وكذا انتقد فسادهم الخلقي واستهانتهم بكرامة الإنسان والتمايّز الطبقي وشرب الخمر وأكل الربا وغيرها.

-سامي مكي العاني تناول في كتابه "الإسلام والشعر" قضية القرآن وموقفه من الشعر بشكل مفصل وبالأخص في الباب الثالث المعنون بـ « القرآن والشعر" حيث تحدّث عن نفى صفة الشعر عن الرسول صلى الله عليه

، وتحدّث عن موقف القرآن من الشعر وتوجيهاته في هذا المقام.

أمّا الدراسات الغربية التي تناولت قضية القرآن والشعر نجد:

- كتاب : القرآن في سياقه، تحقيقات تاريخية وأدبية حول الوسط القرآن ،تأليف : أنجيليكان ويفرت، نيكولاى سيناى .

تناولت أغلب البحوث فيه مسألة القرآن وسياقاته التاريخية ومصادره المعرفية وبيئاته مع نبرة من التشكيك، والرغبة في إعادة النظر في فضائاته العقائدية وتقاطعاته في مجال التصورات مع العقائد السابقة على سبيل التناص تارة وعلى الجدل وتصحيح بعض الحقائق التي وردت في أخبار الما ضين تارة أخرى، وما يهم في هذا الجانب هي دراسة قدّمها "توماس باور" بعنوان: (العلاقة

بين الشعر العربي المبكر والقرآن) يبحث فيها إمكان الاعتماد على الشعر العربي كمصدر لفهم بيئة نزول القرآن وتلقيه، ويحاول فيها الاشتباك مع تلك العوائق المنهجية التي يفترضها الرافضون لمسألة الاعتماد على هذه المدونة الأدبية كمصدر تاريخي.

-كتاب "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمة عبد الرحمن بدوي وفيه أبحاث مطولة عن الشعر الجاهلي روايته وتدوينه وذو صائمه ومسألة الطبع والصناعة، وعن نشأته تحدث مرجليوث في هذا الكتاب عن شهادة القرآن حول وجود شعراء قبل الإسلام وموقف خصوم الرسول من الوحي، وطبيعة المادة الشعرية ووظيفة الشعراء

-أما دراستنا في هذا البحث فهي مختلفة إلى حد ما حيث تتوخى التعمق في مسألة موقف القرآن من الشعر وذلك من خلال خطابهما الموجه نحو الإنسان، وطبيعة المعرفة التي ينقلها الخطابان كليهما، وقد حللنا طبيعة الخطاب الشعري ومنطلقاته التصورية والفكرية وغاياته، وطبيعة الخطاب القرآني ومعرفته المتعالية التي أنتجت نصاً معجزاً متفوقاً على الخطاب الشعري القديم الذي سرعان ما انزاحت مكانته، تاركاً الأفضلية للخطاب القرآني، كما عمدنا إلى تحليل طبيعة الشعر وعوالمه وطبيعة القرآن ورهان الإصلاح والتجديد فيه، والمقارنة بين الخطابين وأثر كل منهما على مسألة الوعي لدى الإنسان، وذلك لمعرفة مآلات الشعر بعد تلك القطيعة المعرفية والجمالية التي أحدثتها القرآن مع مختلف أشكال التعبير زمن النزول، واعتمدنا على منهجية متصاعدة بدء من التحليل إلى المقارنة وصولاً للنتائج.

نتائج الدراسة

من خلال دراستنا هذه تبين لنا أن الخطاب القرآني فرض نفسه كخطاب مغاير لعوالم الشعر، فقد انبنى على أساس المغايرة والاختلاف من حيث القصد والنية والشكل والصياغة ومن حيث المعاني والصدق والرهانات، وهو بذلك يستهدف الإنسان في كليته ويسعى إلى تغيير منظومته المعرفية وبيئته العقائدية وفضاء التصور لديه. وهو في تفرد وفي إمكانات التفوق لديه يسعى إلى زحزحة مكانة الشعر لدى الذهنية العربية إلى مستوى التبعية للنص القرآني المتعالي، وأن يكون حاملو الشعر في خدمة النص القرآني تنويراً وشرحاً لمقاصده وإعلاء لشأنه وتثبيتاً له في مقارعة أعدائه لكسب رهان الإصلاح الكوني الشامل الضامن للسلام والأخوة الإنسانية.

ومن النتائج المتوصل إليها من خلال البحث:

-يلاحظ في الشعر الجاهلي البعد التجزيئي، حيث يختزل الوجود في بعده الحسي الظاهري [الطبيعة، الكائنات، الجسد، السماء] ولذلك أفرط في الحسيات، ومظاهر الأشياء وظلالها، وانحصر خياله في مراعٍ الصحراء ووديانها وقفارها واختلط بعوالم الجن والكهنة وخداع الحواس، فجاء الإسلام ليفتح للشاعر عالم الغيب عبر بوابة الإيمان، ويحرر الروح من عالم الكم والأوهام وانتفاخ الذات إلى عوالم أخرى أشد أصالة وتماسكاً.

-أنبني الإسلام على قاعدة المسؤولية، لذا خص الشعراء بسورة كاملة لمسؤوليتهم الجسيمة على الحياة الجماعية المشتركة، ولقدرتهم الفائقة على الإبداع والتواصل، وقد أثبت القرآن مركزيته - في هذا الجانب- من حيث إنتاج المعرفة، فقد تجاوز التصورات والمفاهيم والقيم التي سيطرت على

المجتمع قديماً، وقدم رؤى متجاوزة، وفتح آفاقاً واسعة للنفس البشرية، ووجه العقول نحو الكليات وبناء المناهج والمفاهيم وتوحي الإصلاح التربوي والاجتماعي بغية الوصول إلى الوعي الحضاري الشامل.

-تم استبدال العالم الواقعي في علاقته باللغة بالعالم الروحي ورموزه وما ترتب عنه من تغير في ثنائية الحقيقة والإحالة [واقع خارج التجربة الإنسانية]، وما ينتج عنه من تساؤلات حول طبيعة المعرفة التي تحملها تلك النصوص ومدى قدرة الذهن على استخلاص الدلالة والاستقراء الدقيق للخطاب، ومن هنا كان الخطاب القرآني مستحوذاً على العقل العربي مستفزاً إياه بمسألة الإعجاز والبلاغة والبيان متجاوزاً بذلك إمكانيات الشعر وحدود القول فيه.

1/ الطبيعة البشرية وفضاءات التشكل

إن جدل الروح والعقل وطبيعة النفس البشرية من أعقد المسائل التي تواجه الفكر البشري وتستفرّه، حيث يقف الكائن حائراً بين القول بصلاحيّة طبيعة الكائن أو فسادها، محدودية عوالمه أو انفتاحها، بكونه وحدة منسجمة أو جملة من المتناقضات الداخلية، بكونه مستقلاً وحرّاً أم منتجاً عقلياً ونفسياً تنسجه البيئة والمحيط والظروف، موضعه في الكون وسلّم مسؤولياته الوجودية والأخلاقية، أسئلة وأخرى تعكس طبيعة النفس الإنسانية المعقّدة في تشكّلها الفردي وتعلّقها بما هو حسيّ والتي تُترجم مقولة "بروتاجوراس" اليوناني: "إنّ الإنسان مقياس كلّ شيء" (رسل، 2023، صفحة 119) فمعرفة طبيعة الإنسان في مختلف أبعادها قد يحلّ ألغاز المعرفة والوجود، غير أنّ انغماس الإنسان الكلّي في قلب الحياة وصراعاته المريرة من أجل البقاء وغريزته العدوانية المكتسبة عبر آلاف السنين والمتجذرة في تركيبته البيولوجية جعلت منه كائناً صعب الانقياد، يأخذ الحسّ الاجتماعي وعبودية الأهواء تارة إلى حدّ تلاشي إنسانيته، ويستفيق أحياناً عبر نداء الفطرة والعقل والشرائع فيصبح كائناً خيراً سهل المعاشرة، وبين هذا وذاك يبقى مدى صلاحية الكائن مرهونة بمدى صلاحية الفكر البشري الموجّه لبنائه وتكوينه نفسياً، بمدى امتلاك العقل البشري للحقيقة والإقناع، ومدى قدرته على كبح نوازع النفس الشريرة، أو الإقرار بالعجز عن ذلك؛ وبالتالي تسليم الأمر للخالق والخضوع لتوجيهاته لأنّه المالك الوحيد للحقيقة المطلقة ولأسرار الحياة والوجود والنفس.

والمجتمع الجاهلي -في هذا الجانب- واجه فجأة على المستوى النفسي والاجتماعي لحظة انشطار معرفي عميق نتيجة احتكاك منظومته العقائدية والفكرية والثقافية القائمة على الشرك والعصبية القبلية والتمييز الطبقي برسالة سماوية توحيدية إنسانية وأخلاقية تحكمها رؤية دقيقة للنفس البشرية وطبيعتها وسبل إصلاحها وإرشادها إلى غاياتها القصوى، رسالة ترفض الاكتفاء بالإقامة في بيت الوجود والاكتفاء بالغرائز ومشاهدة ما تنطوي عليه الطبيعة من دلالات الثبات وانغلاق الأفق، أو ما تتبّعه حاسة البصر من فضاءات الوجود وتقلّبات الفصول؛ وهو شأن الشاعر الجاهلي بحمولته النفسية المعقّدة، ومنظومته الفكرية المتوارثة، وحياته النمطية الرتيبة، وبيئته المحدودة التي صاغت له رؤاه ورموزه وعقائده، والتي في مجملها أرضية محضة، لا أنسام روحية علوية ولا غايات كبرى، ولا رؤى عقلية فائقة كفيلة بتشكيل "رؤية للعالم" أكثر عمقا وشمولية، يكون فيها الفكر ميزته الحقّة ومنهجه الأسمى في تبصّر حقائق الأمور.

وعليه سعى الإسلام منذ البداية إلى إنتاج فضاءات جديدة يكون فيها الروح هو الحادي والمجتمع هو الرقيب وتهذيب النفس هو المبتغى والعقل هو الرائي؛ هذا الأخير هو موطن تكليف الإنسان وتلقّي الخطابات، يتحكّم في مسيرة الإنسان ووعيه، فهو مصدر معرفته ووسيلة إدراكه للكون واللّه والذات، لذا وضعه الخالق في أعلى سلّم الموجودات، ولأجله خُصَّ الإنسان بالتكريم، وأُوكلت له مهمة تعمير الأرض وإصلاحها، وبه استقام أمره فتجاوز مملكة الحيوان وانفتح على كتاب الوجود بحثاً وتأملاً وكشفاً، والأهمّ في كلّ ذلك كونه أداة تفكير دائمة النشاط، تحفظ توازن الكائن وتمكّنه من تجاوز أزماته، ففي الوقت الذي تتطلّع فيه الروح إلى تخطّي دوائر الانتماء الأرضي إلى دوائر أكبر وأشمل معضودة بحاسة الخيال وانفعالات النفس، يتدخّل العقل لتهدئتها، حيث يرفض أن يسلك الكائن طريقه نحو عالم يُؤنّثه الخيال والنفس والغرائز والعواطف والأوهام البعيدة، فتحدث الغواية والضلالة والتهيه وتحصل المعارف الظنيّة، وما زاد الوعي البشري اضطراباً وتشويشاً هو لغز الكائن في الوجود، فلطالما تساءل: هل ما يعيشه هو وجود فعلي أم مجرد ظلال للوجود الحقيقي؟ هل طبيعة النفس البشرية فاسدة تحتاج إلى تقويم؟ في ظلّ حاجة النفس البشرية إلى كبح جماحها هل يكفي العقل لفعل ذلك أم يحتاج الأمر إلى تدخّل خالقها لضبط انزلاقاتها الخطيرة؟ هل جوهر الشعر - بما هو قوّة وطاقة شعورية خفيّة وقهرية - خطيرة على سلامة النفس البشرية؟ هل هو كاف لإدراك حاجات النفس وترقيتها وفهم الواقع وتغييره أم أنّ خطاب العقل والشرائع والمنطق أولى بالواقع وبالنفس البشرية؟ هذه التساؤلات تطرح فرضية أنّ النفس البشرية - بحكم الطبيعة والتكوين المكتسب - خطيرة وأمّارة بالسوء وأنانية ولا حدّ لرغباتها لتعدّد مستوياتها، ولردم الفجوة القائمة بينها والعقل والروح الإنسانية يحتاج الأمر إلى ضوابط وإصلاح دائم، وأهمّها إصلاح الفكر والعمل على تعميقه وجعله مقنعا حتى يكون قادرا على قيادة عجلة النفس بشكل مريح للذات وللآخرين، والعمل على إصلاح الفهم مهمّة منوطة بالشرائع العلوية في غاياتها، والعقل البشري في فهمها وفرضها على الذات والنفس تربية وتوجيها.

العقل وما أدراك ما العقل، أنيطت به مهمة التحكم والتصرّف في حياة الكائن وتحديد مصيره، التحكم في النفس والغرائز المفطورتين على النهم وحبّ الحياة وأعراسها، وكذا مهمة مراقبة الانفعالات التي تثيرها المخيلة والغرائز وأوهام الحسّ المغلوطة - حتى لا ينسحب الكائن من الكون كلّية ويلجّ حافة اللاوعي والجنون، ويغدو العقل حينها مُنتهي الصلاحية - ولكي يكسب العقل رهان حماية الكائن وضمان حسن المصير؛ يحتاج إلى منظومة معرفية قويّة لها القدرة على تنمية قدراته من جهة، وعلى كبح جماح النفس وطمأننة الروح وتبصّر طريق الاستقامة من جهة أخرى، وهذا التصوّر قد يُدخّلنا في دوامة الإحساس بغربة الشعر في ميزان التفكير المنطقي؛ صراعات الذات والوجود، الوعي واللاوعي، الخيال والحقيقة، ممّا يفتح المجال للحديث عن مَوْضَعِ الشعر طبيعةً ووظيفةً، فالشعر بما هو "نغمة العجب" يُعدّ الأفضل والأجمل والأكثر إغراءً للنفس والروح والعواطف، يفسح المجال لرغبات النفس ومكبوتاتها للانفلات والتحليق، يثير جنون المخيلة، فتفتّح صوّراً وأحلاماً، يرسم عوالم ويغري العقول بتصديقها، ينسجُ اللغة بأيادٍ خفية فتخلق الغرابة والطرافة، إته السحر بعينه يؤثر في كيمياء المخلوق ويجعلها طيّعة؛ يَهْدُبُ الطبيعة الحيوانية للكائن ويغيّر مسارها إقناعاً

وإمتاعاً، يُحرِّك القناة السمعية إيقاعاً فتفتتح نوافذ الرؤى والجمال والخفة والمتعة والغبطة، لديه القدرة على امتلاك النفس والتسلُّط عليها، وقد يُدخلها في متاهات ومحن فردية أو جماعية لا قبل للعقل في ضبط ما ينتج عنها من انفعالات واضطرابات.

وبما أن غاية العقائد السماوية هي ضبط جماع النفس وتقييد مسالكها ورسم حدودها، فإنَّ التحكُّم في الخطابات اللُّغوية المُحرَّكة لنوازعها هي من المقاصد الأساسية للشرعية الإسلامية حماية لها ولمحيطها وضماناً للحق والعدل والسلام، ولكون السَّمع مصدر تلقِّي الخبر للنظر فيه وحصول الإدراك؛ فإنَّ المولى عز وجل أراد إعادة توجيه هذه الحاسة عند العرب من الافتتان بالشعر ومطبَّاتهِ إلى الاستماع لخطاب الهدى والاستقامة، وعليه سعى إلى التقليل من سلطة النموذج الشعري الجاهلي عبر التشكيك في طبيعته المعرفية ومصادرها، مثيراً بذلك مُشكلة جنس الشعر من حيث الطبيعة والوظيفة، وقد فتحت هذه المسألة باب المناقشة الحرّة والمُحاجة بين الباحثين، فالموقف القرآني يحمل دعوة إلى إعمال الفكر، وفيه مؤشرات التحوُّل الثقافيِّ القائم على النظر العقلي السليم، ولهذا فإنَّ إشكالية البحث تتعلَّق بتبيان المعايير المعرفية التي يستند إليها القرآن الكريم في تحديد موقفه من الشعر، والغاية من فرض منظوره الخاص، ونحن في هذا الجانب ننطلق من فرضيه أن القرآن الكريم بما هو "معجزة لغوية ومعرفية" يملك نظرة شاملة للكون والإنسان والألوهية، على خلاف المعرفة الإنسانية فهي قائمه على الحسّ والنسبية والاحتمال.

وما تطمح إليه هذه الورقة البحثية هو الكشف عن التصوُّر الإسلامي لمسألة الشعر وعوالمه وأهمية القرآن الكريم كمنظومة معرفية كبرى – مبنية على مبدأ القراءة والتعلُّم – في توجيه هذا الجنس الأدبي وتحديد مجالاته، وزاوية مقاربتنا لهذا الموضوع قائمة على منهج استقرائي للآيات المتعلقة بالشعر مقرون بالتحليل المناسب لاستنباط طبيعة الرؤية القرآنية للموضوع.

2/ طبيعة الشعر وعوالمه

إن من يحاول التفكير في طبيعة الشَّعر وعوالمه يجد نفسه أمام لغز اللُّغة وسحرها وحمولتها الدلالية ومخزونها المعرفي وطاقتها اللامحدودة في مجال الإبداع وإنتاج الفكر، وفي كيفية تصنيفها للعالم والأشياء والأشخاص، فهي تخلق العالم وتجعله مدرَكًا ومعقولًا، وتعيدُ تشكيله باستمرار ليتحقَّق له أكبر قدر من المنطقية والمعقولية، وتلجُّ عوالم النفس ومكامن أسرارها فتتنقل طبيعة الكائن الداخلية من الخفاء إلى ساحة الوعي والشعور فتتمظهر الحقائق النفسية وتتكشف الطبيعة البشرية على اختلاف التجارب والمجتمعات، وكلُّ هذا يتوقَّف أساساً على نوع الأداة [اللغة] وإمكاناتها وكفاءاتها الإنجازية، ويُعدُّ الشَّعر في هذا الجانب الشكل الأسمى للأدائيات اللُّغوية الممكنة واللَّوحة الفنية القادرة على استقطاب كلِّ الألوان، وفيه تتفجَّر الأحاسيس والعواطف والخيالات، وبه تتفجَّر الغدغ النفسية الناجمة عن صراع الغرائز وفعلُ الكبت وتوالد أحلام الذات، ويتمُّ فيه شحن الكلمات بطاقات تعبيرية قادرة على اختراق المظهر وملامسة جواهر الأشياء، والعمل في الوقت نفسه على توليفها وتكثيفها ونقلها بشكل لا قبل للنفس بتحمُّلها، فهي مأخوذة به إلى حدِّ الارتباك والدَّهشة، فكلُّ قصيدة تأخذ الكائن وتنزل به إلى قلب الحياة، إلى أعماقه السريّة الغامضة تُخاطب وُجْدانه بحميمية، تخطفه من الوجود وتلُفُّ به في عوالمها السحرية، تخترق وعيَه وتعيد رسم حدود عوالمه

الداخلية [النفس / الروح / الجسد / العقل]، إنها تمارس على العقل تشويشا، وتقلب اهتمامه من الخارج إلى الداخل، تُذكره بأن الحياة الحقيقية موطنها الروح والنفس وليس ما تفرضه برودة الواقع والحياة النمطية، فهي مقياس رضى الذات لما يدور حولها أو رفضها له، ومن غير تردد يمكن القول: إنها تحمل طابعاً ثورياً معضوداً بالرغبة في تكثيف الحياة إلى حدّ الامتلاء ورفض كلّ ما يحسّس الكائن بالضعف والفناء، إنها هدير الحياة وصخبها في مواجهه العدم والفراغ والغياب والصمت.

والعربيّ بحسّه المرهف أدرك هول الفضاء الصحراوي الصامت وفراغاته الرهيبة وقلق الرحيل المشحون بهشاشة الحياة، فكانت حياته جدولا متواصلا من نزيف الروح في تتبعها لمشاهد الحطّ والترحال، هذا الأخير الذي أيقظ في حياة الشاعر خيال الصحراء التي تبتلع مظاهر الحياة عبر رمالها المتحركة وحرارتها المميّنة، فتتبع لوحاتها بالوصف وصبغها بصرخة القلب المؤلمة، لقد كانت الصحراء في ذهنه رمز تهديد متواصل تنذر بالعقم والفقد، لذا لم تخل تجاربه - في فضاءها المترامي - من تداعيات نفسية وجسدية خطيرة، فتولدت لديه الرغبة في المقاومة وظهرت حاجته الماسة الى ردم الهوة بين واقعه المأساوي القاسي وما تطمح إليه نفسه الثائرة؛ حاجته إلى كلمة يجلب بها الأنس في وحشة الصحراء، ويجمع بها الشمّل لمواجهه التعصّب القبلي، وينقلُ بها مجاهيل الصحراء إلى فضاءات النص، ويقيم بها بهجة الحياة أمام سطوة الواقع المقلقة.

لقد أذكى الصمت أحاسيس الأذن فكانت تترصد كلّ حركة تشعرها بالحياة [حلم السيولة/الطيران/السرعة/الحيوية والخصوبة]، لقد غدا لسانُ الشاعر أداة لحفظ الذات والوجود الجمعي والعقل المتوارث، وهذا ما يفسّر حضوره اللافت وسلطته في الحياة القبلية، فقد كانت رسالته حفظ حياتهم وتخليد أيامهم في فضاء مسكون بهوس الفناء والقحط، ومسالك النسيان الذي تفرضه ذاكرتهم الشفوية، وقد استطاع في ظرف وجيز أن يصعد بلغته إلى ذروة المجد والجمالية؛ استكشافا لخبايا النفس والصحراء، واستعلاء لصوت الجماعة، واستجلابا للمكرّمات، وتحقيقا لعزة النفس وحرّيتها، واستقطابا لمواطن الجمال وفتنته، فغدا لسان القبيلة دون منازع وموضع هيبتها، وأضحت مجالسه الأكثر ظفرا بالأسماع واستقطابا لأحباب البيان.

وبذلك حقّق لنفسه منزلة عالية وحضورا قويا إلى أن جاء الإسلام بمنظومته القيمية الجديدة، والتي قوامها التوحيد وتقوى الخالق تصوّرا، والإيمان المقرون بالعمل الصالح تجسّدا، وهي تخالف تماما المنظومة القيمية الجاهلية القائمة على أساس القوة والجاه والنسب وعبادة الأوثان حياتيا، وعلى الظنّ والهوى والمعتقدات الموروثة معرفيا، وعلى البيان وتشقيق الكلام جماليا، غير أنّ ما يجمعهما على مستوى التلقي هو الفعالية في القول والتوافق مع أحوال النفس وإشكالات الوجود ومعطياتهما الجوهرية، وهما في معركة الاستحواذ وإثبات الوجود، يقتسمان الوسيلة [اللغة/البلاغة] ، ويفترقان على مستوى الرؤية والمنهج والغاية، لما بينهما من تباين على مستوى الرتبة والمصدر، حيث لا تستقيم المقارنة "بين خطاب الخالق والمخلوق، ومن ثم بين إبداعهما قولاً أو فعلاً، وحتى لو أخذناهما نصوصا محضة فلن يصل الشعر بمجموعه إلى مستوى القرآن جودةً بيان وجماليةً سياق وديناميكية خطاب واندياح صور وتكامل رؤية"(خليل، 2021، صفحة 2220، 2246).

وسرعان ما أفرغ القرآن ساحة الشعر من الإقبال، عبّر تجاوز فضائه البلاغي الحسي إلى جمالية متجاوزة لكل الأجناس والأعراف اللغوية القديمة، كما أحدث مفارقة على مستوى جنس القول؛ حيث امتصّ النص القرآني فصاحة العرب مُمثلة في إيقاع أشعارهم وسُمُو خطبهم وحكمة أمثالهم وتوافق أسجاعهم وأعاد بعثها في نص مقدّس جامع لخصائص أدبهم أسلوبا وبيانا، ومفارق لأجناسهم - مفردة - في الخصائص والامتّن، كما أدان الخطاب القرآني على مستوى التصور سُنّة الجاهليين في اقتفاء آثار الآباء والأجداد أقوالا وأفعالا؛ لما فيها من ضبابية في الرؤية وارتباط بالكهانة والسحر وعوالم الجنّ وتعلّق بالعصبية والعدوانية واستجابة للغرائز البدائية القائمة على المفاهيم المضلّة.

ولما كانت النصوص الشعرية الجاهلية تعدّ من أكثر الأدوات تمثيلا لواقع المجتمع العربي قبل الإسلام، ومن الركائز الأولى المؤسسة لبنية العقل العربي، فإن انعكاسها في فضاء جمالي قائم على التخيل والوصف والانفعال والبعد الغنائي الذاتي يكون قد جعل منها تجربة فردية ورؤية جزئية محدودة عن العالم، أكثر منها تعبيرا عن تحولات العالم والأشياء، أو من كونها تقدّم تأملات عقلانية شاملة أو تصورا وجوديا عاما، وهي بذلك تستمد قوّتها من الإحساس والذاكرة الجماعية أكثر ممّا تستمدّه من التفكير المنطقي المنهجي.

3/ التحوّل المعرفي القرآني بين الأداة والموضوع

3/1_ التحوّل المعرفي القرآني وثقافة العرب الشعرية

لقد وضع القرآن الكريم بمنظومته المعرفية المطلقة وجهازه البياني _ المتجاوز للذائقة الشعرية العربية القديمة _ الذات العربية أمام آلة تغيير كبرى متعدّدة الأبعاد والأساليب والرؤى، فقد تمكّن في ظرف وجيز من خلخلة ذهن العربي ودفعه إلى إعادة النظر في الكثير من العادات والعقائد والمسلّمات، ودعاه إلى إعادة بناء شخصية الإنسان وفق منظومة معرفية متكاملة الأركان والأبعاد، تسمح في النهاية بانفتاح هذه الشخصية على آفاق غيبية ينبثق منها صوت الخالق لعبده المخلوق حاثا إياه على الاستجابة لنداء الحقّ، والاعتراف بالوحدانية المطلقة الصامدة العالمة، والمحيطه بكلّ الموجودات في لا تناهيه من حيث الصغر أو الكبر، وغدا الدين الجديد بمرجعيته الفكرية المتعالية منتجا للقيمة ومجدّدا لحقل المعارف والفنون، مُقدّما نفسه على أساس أنّه الأداة المثلى لتحريك عناصر المنظومة المعرفية القديمة القائمة على الأساطير وتقديس الآباء والأجداد سلوكا وقولا، وملمحا بحضور أفق معرفي ذي طبيعة استثنائية، لعل أهم سماته تذكير الإنسان أنّه من جوهر روحانيّ، ومن كيانٍ نفسانيّ/جسمانيّ مهّدّة فيه الروح بالانتهاء إن هي لم تتواصل مع عالمها الحقيقيّ، وإن هي استغرقت في التكالب على الدنيا ومُغرياتها، شأنها في ذلك شأن الذات العربية الجاهلية التي انغمست ردحا من الزمن في عالم محكوم بالعصبية والتفاخر والعجب والصراع والتجارب الممتاهية مع طقوس الولاء الجماعيّ الإلزامي، والتي سرعان ما أفاء الله عليها نورا مُشعّا؛ بضياء رسالة سماوية خالدة وبنيّ من أصلابها جدير بنقلها من حال الانكفاء على الذات إلى حال الريادة عبر المدرسة المعرفية القرآنية، مصداقا لقوله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (سورة آل عمران/164).

هذا اللسان الإلهي بقوة التعبيرية والمنهجية جاء ليحرك القلب والعقل معا، ويرمم انكسارات الروح الجاهلية التي ينبعث منها بقايا مسارب الحقد والضغينة والحسد المتوارثة عبر المعاول الشعرية الأكثر إيلا، وفي ضوء هذا الاختراق العلوي نتساءل: ما طبيعة المعرفة والمفاهيم التي يملكها الدين الجديد؟ وما هي مركزاته المنطقية في مهاجمة المنظومة القديمة، وبالأخص ما يتعلق بالذائقة الفنية الشعرية؟

2/3 _ طبيعة المعرفة القرآنية وأدواتها

إن الحديث عن طبيعة المعرفة القرآنية يعني الحديث عن طبيعة المعرفة الإلهية، فالله من حيث هو مخالف للحوادث والموجودات ومتعال عن مفاهيم الشكل والصورة يستحيل على الأذهان إدراك كنهه ومن ثمة طبيعة تصورات ومداركه وحيثياتها وحدودها، وما يهمننا في هذا الجانب هو الإشارة إلى تعاليه كلية عن المعارف التي يُنتجها العقل البشري بأدواته المحدودة، فالله لا ينظر في الوجود كموضوع ليتعرف عليه، مما يعني أنه سينتقل مثل البشر من حالة الجهل إلى حالة المعرفة، وهذا على الله محال لأن الله غير منقسم على ذاته، بل ذات مكتملة صامدة مكتفية بذاتها عالمة مطلقة الإرادة قادرة على الفعل والإيجاد، أمره مطاعة وكل شيء قائم بعلمها مستمر بعنايتها، مطلقة القدرة مسيطرة حكيمة وعادلة، يتساوى عندها الوجود والعدم، السرعة المطلقة والدنيا، الميتافيزيقي والفيزيقي، بداية الزمن ونهايته، إنها خالقة اللامتناهي في الزمن/الخلود، واللامتناهي في الكبر/المجرات، واللامتناهي في الصغر/الجزئيات، واللامتناهي في الطول والعمق، وعلمها محيط بكل شيء ولا نهائي، فالله بذلك عليم على سبيل الحقيقة لا على سبيل التجريب والنسبية كما هو الأمر عند الإنسان، وهو لا يغيب عنه شيء حتى يستحضره بالعقل، ولا يغفو أو ينسى حتى يحتاج للتذكر، وليس ببعيد حتى يكابد الانفصال، ولا بمتعدد حتى يبحث عن التكامل، فهو الوحيد القادر على الخلق والإبداع ورسم طريق الحقيقة المستقيم، وعلى تشكيل النسق الأخلاقي الضامن لسلامة الفطرة البشرية، والقادر على إنقاذ الروح من مخالب متع الجسد المنحرفة، ومن شراك السحر والكهانة وزخارف البلاغة المتلاعبة بالعقول، ومكائد الشيطان الذي اكتشف مواضع الضعف الإنساني فساقه نحوها بالإغراء والاحتيال وكذا في سعيه الخارق لإثارة وساوس النفس وأوهامها وإطلاق العنان للمخيلة المجنونة وتحريك أشباحها وأطيافها، فشتان بين العارف الحقيقي الأبدى بجواهر الأشياء والكائن الزمني المحدود المتعلم الواهم.

فالخالق بحكم الخلق والمعرفة يدرك حدود المقدرة البشرية المرسومة وإمكاناتها المعلومة، والمحكومة بعامل الزمن وإمكانات العقل وسنن التطور وأسس حضارية خاصة بالعرق والجنس واللغة، وكلها مرتبطة بطاقتات التعلم؛ بالقلم وممكنات الإنجاز المعرفي وهي في مجملها تحت السيطرة ومحكومة بقوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" سورة الإسراء/ الآية 85، لأن طبيعة المعرفة الإلهية - كما ذكرنا سالفاً - سابقة عن الموضوع وغير مشروطة بالحس والأداة، وهنا نودّ -

بالمفهوم البشري- أن نفرّق بين نوعين من المعرفة: المعرفة الناتجة عن المشاهدة وإدراك الظواهر الحسية، وهي معرفة سطحية تنقلُ وهم الحواس حول الشيء المدرك، وهي معرفة وصفية ناقصة مضلّة، والمعرفة العقلية القائمة على الملاحظة والتحليل والتفسير والتركيب وهي معرفة داخلية للأشياء تغوص في باطنها المادي عبر التفكير والفهم والتركيب، وهي معرفة دقيقة للأشياء ومؤسسة للفكر ومنتجة للحقائق، فيها دقّة النظر وعمق الفكر وقوّة الإقناع، وفي هذا الجانب نوذُ الإشارة إلى أن المعرفة التي يقدّمها القرآن حول العالم والأشياء، لا يقدّمها بنظرة تجزيئية دقيقة ومفصلة، ممّا ينتج عنها تحوّل طبيعة الكتاب من مقاصد إلى مقاصد أخرى، ثمّ أنّ تركيز الخالق على تقديم حقائق الأشياء في جزئياتها يُبطل دورَ هبة العقل للإنسان، ويقثّل فيه حبّ المعرفة والاكتشاف، أو يبطل جدوى العقل والتكليف أساساً.

لذا تركت المعرفة الإلهية جانبَ الكون المحسوس للإنسان، وفي الوقت نفسه حملت في طياتها أدوات فكرية وإشارات خفيّة تستفزّ العقل العربيّ وتحرضه على توسيع مداركه وسبل تأمل العالم من حوله، فتحت أعينه على الكون اللامرئي؛ عالم الغيب والروح والملائكة والآخرة والماضي السحيق والمستقبل البعيد عبر الوحي، هذا الغيب الذي يدلّ على أسبقية المعرفة الإلهية وأصالتها على التّمظهر الوجودي الخلاق وغاياته الكُبرى؛ فهي معرفة مجردة دقيقة كليّة ومن شدة تماسكها وفعالياتها انبثق عنها كونٌ لا متناهٍ، غاية في الدقّة والجمال والنظام، وإدراك جانب من عظمة هذا الكون المادي بعين الحسّ تقرر خلق الإنسان ومنحه أمانة العقل السالفة الذكر للتعرف على ذاته والكون من حوله، وتشريفه برتبة السيادة على المخلوقات بفعل هذه الشرارة الإلهية القادرة على تطويع الكون وتسخيرهِ لصالحه بما يفتح له باب إمكان الاستخلاف وتحمل نتائج أفعاله في الخيارات الحرة وفي أحقيّة الاعتراف بحقوق المالك وتشريعاته العلوية.

فالعقل يصلح ويسوء بحسب النوايا وطبيعة الاستعمال، فهو من ناحية يمنح الكائن آليات اكتساب المعرفة واستثمار ملكة اللسان التي تمُدُّ بصرَ الكائن بطاقة إبصار لا مثيل لها، حيث يرى الكون من نافذة العقل ويستشعر وجوده من خلاله ويتساءل به عن موقعه وسرّ وجوده، ومن ناحية أخرى يكشف لنا عن هول العدم والاختفاء القسري عن شاشة الوجود، ويعرض علينا ألغاز الحياة المنغلقة عن الفهم، مشيراً بذلك إلى قلق الوجود والمصير، وغموض موطننا الحقيقي؛ بين مجهولية الروح ومعقولية الجسد وافتقارنا للقدرة على حلّ لغز الوجود، وتخطّي حدود الكون المرئي، فينتابنا - من هذا الجانب - الإحباط والضياع ودوار الغياب، ويصدق فينا قوله تعالى: "مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا" (سورة الكهف/ الآية 51) وكذا قوله تعالى: "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" (سورة الأنعام/ الآية 103)، ممّا يدلّ على محدودية المعرفة الإنسانية في بعدها الحسيّ والأداتي [اللغة]، وفي انقطاعها عن سرّ الخلق والتكوين، وفي مجالها الحيوي، على خلاف المعرفة

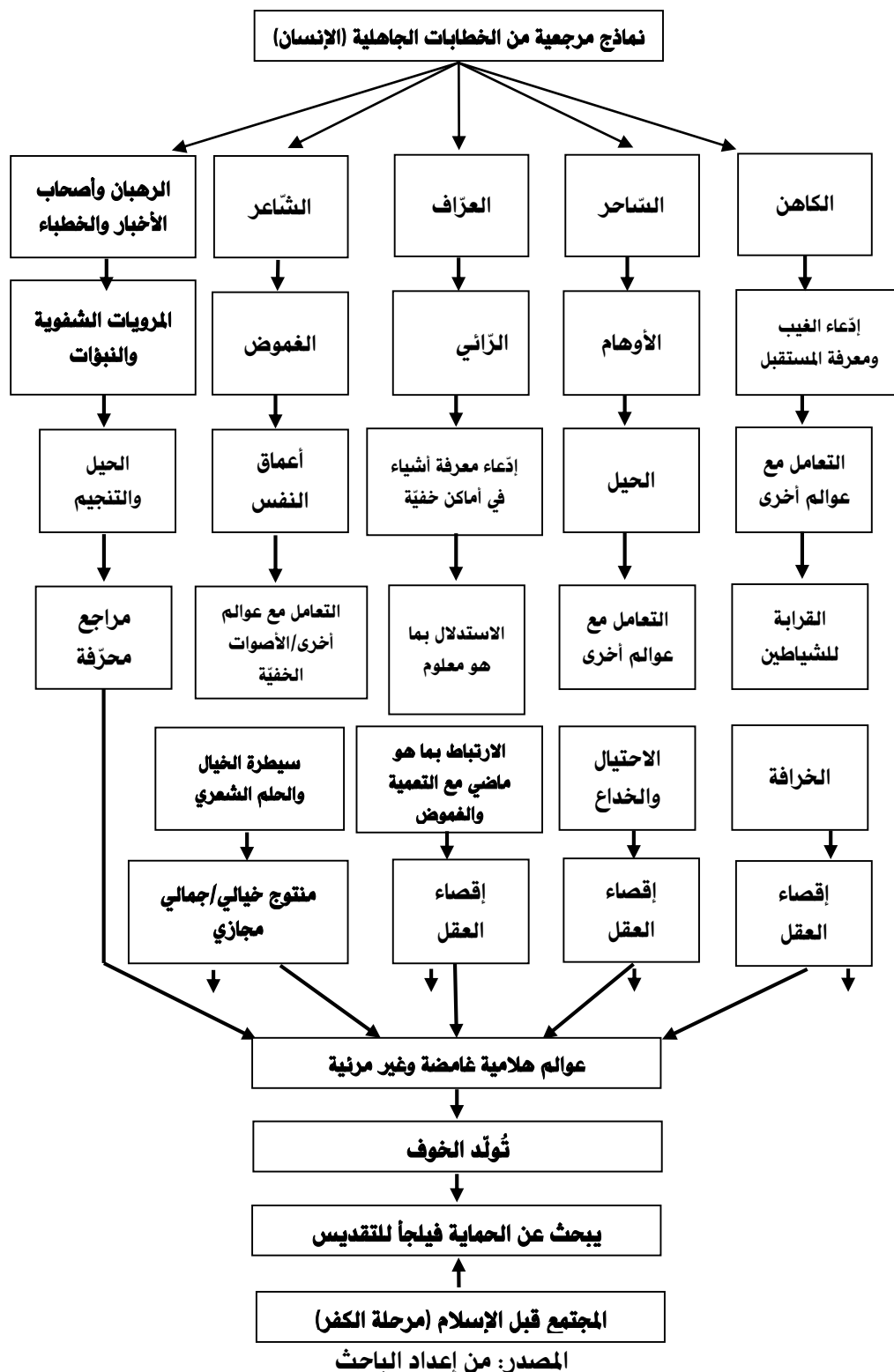
القرآنية القائمة على التحدي والإعجاز ووحدانية المصدر واليقينية، والانفتاح على الغيب، المطابقة والشمولية وموافقة الفطرة والثبات، وهي معرفة ماهويّة ذات مغزى روحي إعلامي إرشادي وتعليمي، فيها صدق القضايا ودقّة الأحكام وروح التشريع والتكليف ومسألة القيمة وسلامة المبادئ والأطر للعقل البشري، ومن أدواتها المعرفية نجد: النظر، التأمل، التفكير، التدبّر، التذكّر، التعلّم، الحوار، السمع، التلاوة، التسامح، التأويل، التدوين، القراءة، التفقّه، التبصّر، الاستدلال، التنبّط وغيرها، وهي أدوات عقلية فعّالة في تحصيل المعرفة وتعليمها للأجيال، وهي في جوهرها قائمة على التساؤل عن علل الأشياء والقوانين الخفيّة المتحكمة فيها، أي: أن العقل بإمكانه تجاوز المحسوسات إلى المعقولات لاستنباط العلل واستقراء المعطيات، قصد بناء معرفة عقلانية سليمة.

فالله بما هو الخالق والمبدع والعالم بكل شيء جسّد جانباً من هذه القدرة في النصّ القرآني، فهو خطاب معرفي دقيق لا مجال فيه للاستبدال والحذف أو التقديم والتأخير، إنّه أصحّ المعاني بأدقّ الألفاظ وبأفضل الطرق، أي: أنّ القرآن ليس فضاء أدبيا تشكيليّاً يؤدي فيه الخيال والمجاز والتصوير دور التعطيم والغموض، بل هو حقائق مطلقة صادقة معجزة ببعدها الغيبي في قالب لفظي متساوق الدلالات، متعدّد السياقات، متحدّ للأوعية اللغوية ولعادات العرب في سوق كلامهم، فريد في نظمه وفي أنساقه الكليّة، وهو في تحديده لم يستهدف الأداء اللغوي - المعجزة البيانية - فقط كما يحلو للقدامى تسميتها، بل الأداء اللغوي والمعاني الخالدة؛ أي الحقائق الغيبية والعلمية والنفسيّة والتربوية وكلّ المقاصد الغلّيا التي تضمّنها ذلك التركيب اللغوي الفريد، إنّنا أمام خطاب معرفي منطقيّ قدسيّ المرجع، مفارق للتصورات البشرية مخالف للأعراف اللغوية، يستحقّ التصنيف [فوق البشري] ولا يجوز تنزيله منزلة الخطاب الإنساني الوضعي المحكوم بالنقض والجدال.

وهذه القابلية المثلى لتحريك العقل العربيّ التي يتضمّنها النصّ القرآنيّ والمعرفة الشاملة التي يحتويها كفيلة بتوسيع المدارك العقلية والأنظمة القبليّة وتغيير أشكال التواصل وأدواته القديمة، والأهمّ فرض النظام من خلال منظومته التشريعية القويّة، والقدرة على نقل المجتمع من طور الوعي بالشعر كمشافهة إلى طور الوعي بالنصّ القرآني ككتابة وكل ما سيحكم الخطابات الأخرى من أفعال التدوين والقراءة وتدقيق النظر، إنّ هذا الأمر لا يتأتّى بسهولة لخصوصية النصّ الشعري؛ بحكم تمثّله للقيم الجمعيّة وتعلّقه بالإنشاد والأسواق، وتقاطعه مع خطابات أخرى لها سطوتها قديماً ممثّلة في كلّ من الكاهن والعرفاء والساحر، هذه المنظومة الخطابية ككلّ الرافدة للشعر والمسيطرة على حياة العربيّ أحسّت بخطورة الخطاب القرآني الجديد وقوّة سلطانه وكثرة أتباعه، فحاولت صرف الناس عن الدعوة، مدّعية أن نظام هذا الخطاب لا يختلف عن منظومتهم القديمة [شعرا وسحرا وكهنة وارتباطاً بعالم الجنّ] وحاولوا إنزال النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم منزلة البشري الذي يعاني من الهلوسة والجنون، وألحقوا به أصنافاً

من جهالاتهم القديمة الممّدة للسحر والكهنة وتشقيق الكلام، ورامت تسفيه شخصه صلى الله عليه وسلم لما يحمله من رمزية عقائدية ومن حضور قيادي وتاريخي، غير أنّ المكيدة سرعان ما أخفقت بشهادة كبراء القوم وفصحائهم، لما بين خطاباتهم والخطاب القرآني من تباين على مستوى المرجع والحجة والموثوقية والأداء، كما هو مبين في الشكل الآتي:

الشكل (01): يمثل نماذج مرجعية من الخطابات الجاهلية (الإنسان)



يلاحظ من الشكل مدى هشاشة عقائد الجاهليين واضطراب مراجعهم الفكرية، وذلك لسيطرة الفكر الخرافي وادّعاء التواصل مع عالم الغيب ومحادثة الكائنات اللامرئية على الصعيد الخطابي الموجّه إليهم، وقد تلقوا هذا الخطاب بحيوية وحرارة وتفاعل كبير لكون أنفسهم كانت محكومة بعقيدة الخوف والتقديس، ومهمومة بهاجس البقاء وحفظ النفس، وكلّ هذا كان مُوازٍ للجهل المركّب الذي لحق بعقولهم وعَلِقَ بأنفسهم فباتوا فريسة سهلة لادّعاء الكهنة والسحرة والمشعوذين والعرفّافين وبعض الفئات من الشعراء، الذين ظلّوا مصدرًا قارًا للمعرفة والسلطة، بينما الشعب ظلّ سادراً في عالم الجهل والخرافة مبدئياً طواعية لا حدّ لها، ولهذا جاء القرآن الكريم ليعيد الأمور إلى نصابها ويعيد ترتيب النظام الاجتماعي وفق معطيات روحية فائقة، وعقلانية منطقية متجدّدة.

وبما أنّ العرب أهل جدل كما يصفهم القرآن، فكان من الأجدر بهم - حسب التصوّر القرآني - مجادلة الأصول الفكرية لثقافتهم الموروثة، وعليهم أن يكوّنوا بأنفسهم روافد معرفية جديدة، وأن يضعوا حدّاً للانحرافات والأباطيل ولهم في القرآن معين على ذلك، لهم فيه التصورات والأدوات الكافية لإعادة تشكيل عالم مبنيّ على القراءة والتفكير، منفتح على المطلق، عقلانيّ عمليّ يُصحّح المفاهيم ويتجاوز المنجزات القديمة والتجارب الساذجة، ويراجع مخزون الذاكرة باستمرار، يؤمن بالتجدّد ويسعى إليه دوماً، أو ما يمكن أن نصلّح عليه بالعقلانية المؤمنة المصلحة، أي؛ العقلانية التي تشتغل تحت مظلة الدّفاع عن الحقيقة وحرية البحث وسلامة النوايا وتبيل المقاصد ومُناشدة رضا الكائن الأسمى، العقلانية الخيّرة التي تؤسّس المعايير السليمة للحياة البشرية بكلّ أبعادها [العقائدية/الفنية/العلمية/السياسية/الاجتماعية].

فالرؤية القرآنية الفائقة للإنسان والوجود تنشُدُ تخليص الفرد العربي خاصة والإنسانية جمعاء من كلّ القيود التي تحدّ من حرية الكائن وفعاليته، لا سيما وأنّ جغرافية زمن النزول القرآني واجهت بيئة صحراوية قاسية شلّت الذات العربية لعقود خلت ودفعته بها نحو عقيدة الجبر والضعف والسلب، ونظاماً قَبلياً متشدّداً ساهم في انطواء الذات العربية وتعاليلها على الآخرين، وبيئة جافة قاحلة أذكت روح المغالبة والصراع من أجل البقاء وتمجيد القوة، ومنظومة أخلاقية قائمة على متطلبات نسق العيش والمفاهيم القبلية من نبرة الولاء إلى إكرام للضيف والتماهي مع الطبيعة الصحراوية في آفاقها المحدودة بحدود نظام القبائل اللامتكافئ.

وهذه المنظومة ذات البنية المغلقة حملها الشاعر همّاً وسخر لها لسانه شعراً، وبنزعة تقديسيه لوظيفته راح ينشر روح المغالبة وحبّ الظهور وتمجيد صفاء العرق على حساب القيم الإنسانية الجوهرية، أمّا خطابه حول الموجودات فقد كانت تحركها أحاسيس وأفكار عدائية، فكلّ ما يحيط به غير مؤانس [الطلل، الظعن، العصبية القبلية، الرحلة نحو المجهول] وقد تمخض عن كلّ هذا نمط عيش قائم على العصبية القبلية الضيقة القائمة على القوة والاستعباد، وحياة فوضوية متحرّكة مليئة بالضغوط الاجتماعية والنفسية؛ ذلك

أن القبيلة: "لكي تعوّض عن هُلاميتها العمائّة (اللاشكالية / الفوضوية)، تميل دائماً إلى إنتاج "زعيم" يكاد يصبح دائماً ضحية انتفاخ واعيته الأنّيّة" (يونغ، 1996، صفحة 19)، وهذا الحضور اللافت لسيد القبيلة وتمركزه منع رؤى الشاعر وآراءه من تجاوز آفاق القبيلة إلى ما هو إشكالي ووجودي ومطلق، فلا دفاع عن الحقوق المهضومة ولا عن المرأة المؤودة ولا الفئات المهمشة، ولا إغاضة لنوع النزاعات والحروب، ولا تحليل في فضاءات الألوهية والخلق والوجود.

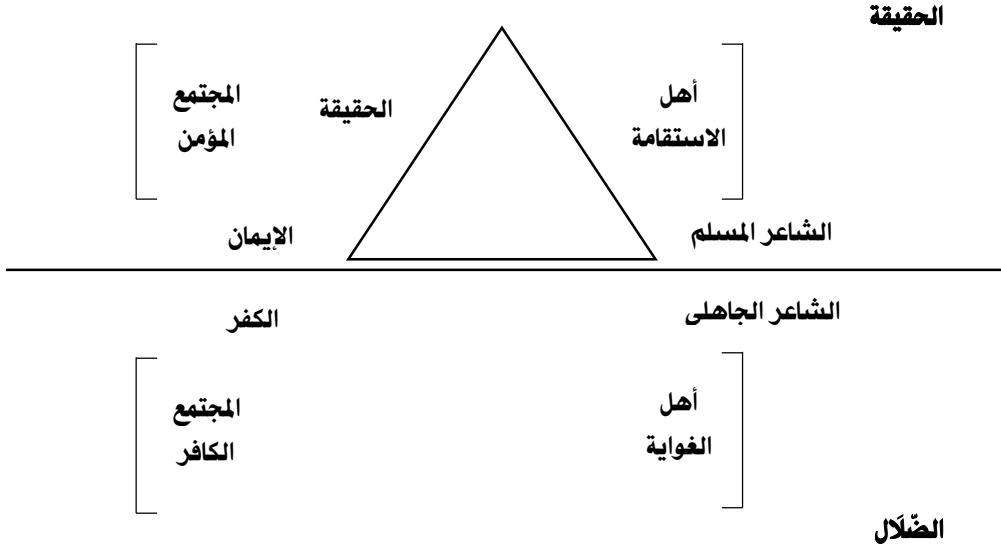
فالشعر القديم أضعف من أن يصمد أمام المطالب العقلية والروحية والاقتصادية للإنسان العربي، وأضعف كذلك من مواجهة عقيدة الإسلام وهي في أوج نشاطها وفعاليتها وتنظيمها، لاسيما وأن هذه الأخيرة فتحت باباً للمعرفة لم يكن مألوفاً عند العربي، واقتاحت عليه منظومة أخلاقية عملية متكاملة كفيلة بتخليصه من نبرة اليأس والعدمية، وفتحت له باباً للأمل من خلال ربط أفق حياته الدنيوية المحدود بعالم لامتناه (الآخرة) يجب العمل له بجِدٍّ، والأهمّ كذلك هو البعد الاجتماعي والحضاري للعقيدة والقائم على فكرة الانتصار للمساواة في الحقوق والواجبات بغض النظر عن العرق واللون والرتبة، والتعايش مع الآخرين على اختلاف عقائدهم وألسنتهم، وهذه المواصفات الكونية جعلتها مُجاوزة لنمط حياة الجاهليّ الرتيبة، وتقاليده البالية، ومناوئة للتصرفات العشوائية لفئة الشعراء القائمة حياتهم على أرضية هشّة من التصورات والأفعال، وهو ما جعل نتاجهم عرضة للمساءلة القرآنية؛ على سبيل إثارة الشكّ في دائرة الوعي الشعري القديم القائم - في التصوّر القرآني - على الظنّ والهوى والضلال والإسراف في الحسيّة، مصداقاً لقوله تعالى: [وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)] سورة الشعراء (224-227).

فالأيات تدعو إلى إعادة النظر في الخطاب الشعري عامة، وفي طبيعة العقل العربي القائم على التبعية خاصة، فلو تصفحنا الآيات التالية: الآية 69 من سورة يس من قوله تعالى: "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ"، والآيتان (36-37) من سورة الصافات، من قوله تعالى: "وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارْكُوا إِلَهْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْثُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)". والآية 41 من سورة الحاقة: "(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)، والآيتان (30-31) من سورة الطور: "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَثُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)". فالآيات الكريمت توحى بعنصر الصراع بين الكفر والإيمان بالدين الجديد، بين عقل جاهليّ متوارث قائم على التبعية والانقياد التام لسلطة الشعر؛ من حيث الرؤية والموضوعات والأهواء، تبعية لشاعر يُطارِدُ أوهامه وأطيافه، ويُملي على الناس تنبؤاته وأسراره الدفينة ومعتقداته الموروثة، ويُعيد إنتاج دورة الزمن الرتيب والفكر المشترك بصيغ مُكررة بطريقة آليّة، غير قادر من الانفلات من برائن الدهشة والانفعال والإحساس بالقساوة والتحول، ومنغمساً أحياناً في نزعة بطولية ملفوفة بنبرة المبالغة والتهويل.

وفي مقابل هذا يبرز العقل الإسلامي المنفتح على الفطرة والإيمان وعلى عالم الغيب الواسع ويقترح على العربيّ تجاوز ذاته وأهوائه وعدم الانصياع لغواية القول الأكثر إثارة للغرائز والانفعالات

والقوى السحرية، ويحثّه على تجاوز معارفه الأرضية اليومية المحدودة إلى ما هو كونيّ وشموليّ؛ حيث تبرّز عوالم أخرى وقضايا مصيرية ترتبط بالإنسان في بُعد الروحي والعقلي، محدّدا للإنسان مركزية قارة قائمة على الإيمان والفطرة والتعلّل والشرائع السليمة، وأدخل بذلك الذائقة الشعرية في سجال عقلي قوامه ثنائية (الإيمان والكفر)، ورسم بذلك الحدود بين الحقيقة والضلال؛ نمثّل لها بمثلث السراب والغواية والكفر في مقابل الحقيقة والإيمان والإسلام، وهي بهذا الشكل:

شكل (2): يمثل الحدود بين الحقيقة والضلال.



المصدر: من إعداد الباحث

فالإسلام باعتباره حاملا للحقيقة المطلقة وراغبا في ايصالها إلى أقصى المعمورة، لن يرضى بأن يكون للشعر [وهو أقوى سلطة خطابية آنذاك] أن يكون أداة لتمزيق المجتمع وتعويده على أساليب النهب وترداد مجالس الخمر واللهو والمتع الحسية، وعمد بذلك إلى تغيير المعايير وفقا لتغيّر العقيدة والأهداف والوسائل وجعل الإيمان قاعدة والعمل الصالح وسيلة ووجه الله غاية والانتصار للحق والحقيقة والصدق هدفا، منبّها بذلك العرب إلى ما لحق شعرهم من تشوّهات في الفطرة وعماء في البصيرة وانفصام في الشخصية وانغلاق في الأفق، فعمد إلى تضعيف سلطة الشعر القديم لديهم عبر نعتة بالضلال والأوهام والسحر والغواية، مؤكّدا على ضرورة تأديب القوم بتعليّة صوت التوحيد وإفحام أهل الشرك وتسفيه عقائدهم وتقويض آدابهم.

4/الرؤية القرآنية لطبيعة الشعر

1/4 - الشعر والغواية

ثمثّل التقاليد والقيم الأخلاقية والأحاسيس والمعتقدات والعرق والعصبية روح القبيلة العربية قديما، وهذه العناصر يتقيّد بها كلّ فرد ويخضع لها خضوعا تامّا ويحملها

في ذهنه على شكل متخيل جمعي يستأنس به ويستشعر حضوره في الكون من خلاله، والشاعر لكونه لسان القبيلة يعمل بفعالية ووعي على صهر هذه العناصر وإعادة تشكيلها في أنساق لغوية وجماالية مثيرة، بما يجعل العالم تمثيلات ذهنية وقيما ثقافية قابلة للتبادل بين أفراد القبيلة الواحدة، بها يعرفون عالمهم ويعبرون عن مشاعرهم ويصوغون أحكامهم ويستشعرون وحدتهم، وعلى الرغم من أهمية الأدب والفن ودورهما في تشكيل المجتمع العربي القديم وحفظ وجوده، إلا أن طبيعة البيئة والجهل المركب بالعقائد وغياب الكتابة والصراعات الحادة والعصبية أنتجت جنسا أدبيا فائق الخطورة على الذهنية العربية استهوته النفوس وتعلقت به الهمم واستحسنته الأسماع وبادرت إليه في المجالس والأسواق وسرعان ما أخذ هذا الجنس [الشعر] النفس العربية في مسارب النزق والطيش " والسفه والحمق والأنفة والخفة والغضب، وعدم الانقياد لحكم و شريعة وإرادة إلهية" (علي، 2001، صفحة 40) ولهذا اتخذ الإسلام المجتمع العربي الجاهلي نواة لإدارة الصراع حول مفهوم "الإنسان ورسالته في الوجود"، مبدئاً امتعاضه من نمط الحياة الجاهلية عامة ومن أداتها السحرية الراعية لاستمراريتها وهي "الشعر" بالخصوص، داعياً إلى إعادة النظر في هذه البيئة المعرفية القائمة على الدجل والسحر والكهانة والتطيّر والخرافة وعبادة الأصنام وإراقة الدماء، ومستتهجنا رسالة الشاعر الجاهلي وانقياده الأعمى للحس الاجتماعي المفروض عليه دون تفكير أو تمحيص، لسانه في ذلك قول دريد بن الصّمة:

وما أنا إلا من غزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ . غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشَّدَ¹ (الصمة، د.ت، صفحة 62)

فالتقليد القبلي حاضر في وعي الشاعر تعلوه نبرة الصراع، فمنذ فجر الجاهلية والشعر يخلد البطولات ويمجد الحروب ويحرّض عليها بداعي الثأر تارة، ويدافع استعراض القوة وعامل القحط تارة، ولأتفه الأسباب أحيانا أخرى، فالشعر يثير الحمية في نفوس المقاتلين، ويذكّرهم بما مضى عليهم من النكسات، ويعدّهم بالنصر، ويرفع نبرة التحدي ليقرع مسامع الأعداء، هذا الشعر الرّنان صوتيا والخاوي من نداء العقل والضمير مُحْتَوَى تَفْطَنَ إليه بعضُ العقلاء والحكماء فاستخدموا أشعارهم لرأب الصدع وحقق الدماء، والإسلام بدوره جاء لينبّه إلى خطورة الشعر ووظيفته؛ لاسيما الشعر الذي يسعى من خلاله الشاعر إلى إشباع رؤاه وخيالاته المحفوفة بالأوهام والأساطير والأهواء، وبأمراضه النفسية وأحاسيسه المضطربة وبإغراء المكاسب المتنامي، وهنا يلوح في ذهن مسألة الربط بين الشعر والنفس البشرية ودهاليزها المظلمة.

ففي التّصوّر القرآني يبدو الشاعر كآلة جسدية يُحرّكها من الداخل القلق والغواية والفرع والغربة فيظهر فيها كالمُصاب بالجنون، فينسبُ عوالمه للغواية والهيام والكذب والبُهتان نتيجة اضطراب الحقائق في ذهنه: أي انحطاط الشعر وخلوّه من الإرادة والوعي وسيطرة مشاعر الفناء والضياع فكارل يونغ في هذا السياق يرى "أن انعدام الشعور الديني يُسبب كثيرا من مشاعر القلق والخوف من المستقبل والشعور بعدم الأمان والنزوع نحو النزاعات المادية البحتة، كما يؤدي الى فقدان الشعور بمعنى ومغزى الحياة ويؤدي ذلك الى الشعور بالضياع" (سعاد، 2020، صفحة 236، 260) وهذا

يفتح باب التساؤل عن الكينونة في علاقتها بالطبيعة والعالم والأكوان الخفية، في بحثها الدائم عن خطاب مقنع وقادر على سدّ بوابة القلق والتهيه والضلال.

2/4 - الشعر وسؤال الحقيقة

يقوم التصوّر الإسلامي على فكرة أن الحقيقة لا توجد في عالم المحسوسات وإنما في عالم مفارق لا يتأتى للفرد إتيانها إلّا عبر الإيمان والعلاقة المباشرة بالخالق ولا يحصل حضورها في الزمن البشري إلّا بالنبوة والوحي، على خلاف التصوّر الشعري الذي انحسرت حقائقه حول بقعة جغرافية محدودة قوامها شيخ القبيلة كمرکز قرار، والماء كرمز حياة، والمتخيّل الثقافي كميراث جمعي، في سياق قبلي لا سبيل للفكّك منه، تلك هي عوالم الفرد ومصادر معارفه، لذا اتّجهت دلالات اللفظ القرآني نحو نعت أتباع الشعراء قديما بذوي النفوس الضعيفة الذين يُطاردون السراب، يجرون خلف الشاعر لأنّه يوهّمهم بأنّه مطّلع على الحقائق الخفية، والتي عادة ما يغلفها بسحر القول ذي الأبعاد الحسيّة والبصرية والموسيقية، فينتج الافتتان والغواية، والعيش بذلك في حضرة الشاعر وعيًا ورؤية وموقفًا؛ وهو ضربٌ من العيش في مسارب العتمة التي واجهها، في قلب التخيّلات المروّعة بظلالها البعيدة وبعمقها النفسي والاجتماعي المتوارث، حيث تساهم في جُمْلتها في إيجاد عوالم ملأى بالغربة والغموض والانفعالات والمكبوتات، فيحدثُ التداخل القهري بين عوالم افتراضية من وهَم الشاعر والعالم الواقعي الذي يعيشه الفرد العربي، معالمها تشوّه في الأفكار والتصورات والسلوكيات، وارتباكٌ في الحياة.

وعليه بنى القرآن اعتراضه لمهمّة الشاعر الجاهلي على عاملين أساسيين: العامل الأوّل يشير الى البعد التضليلي الذي يُمارسه الشاعر فهو لا يقودنا نحو الحقائق ومسالك المعرفة بقدر ما يقودنا الى عوالمه النفسية وإلى حياته الخاصة المليئة بالتخيّلات الفاسدة، حيث يبدو الشاعر فيها فاقدًا للوعي والحكمة، ضحيةً للمعتقدات القديمة، يهيمُ في كلّ واد ويعملُ على إغواء الناس، مُدْعياً انفتاح كينونته على عوالم أخرى تظلّ دوماً عن الناس مخفية، يُطارِد أرضاً ملأى بالأشباح، ويواجه صمّتا يَنبثقُ منه ما هو مجهول، فالشعر يُوحي بحالة من اليقظة يُحاول فيها الشاعر رأب الصدع بين ما يراه [أماله] وواقعه الإنشكالي، أي أنّ دائرة التواصل مع مجتمعه مأزومة- بفعل الفوضى والاضطرابات وعوامل البيئة- وسيكون الخلاء والصمت بمثابة صوت لا إنساني؛ صوت خفي، صوت الجنّ والشياطين كعامل مؤيّد لمواجهة هذا الواقع الموبوء، وهو بمثابة عودة لا إرادية لكون الطفولة البشرية، كون البدايات والتداخلات، لحظة صامتة شبه طيفية يكون فيها الشاعر أقرب ما يكون لمنابع الفكر، أوقد يندفع الشاعر لأقصى نقطة يختزنها اللاوعي الجمعي، وهذا الفعل المُضني في البحث عن المعاني الخفية والغامضة فعل لا يمكن الوثوق في جدواه وأهميته لسريّة مصادره وغموض منابته.

والعامل الثاني الذي يُشير إليه القرآن الكريم يتعلّق بطبيعة شخصية الشاعر الجاهلي، حيث يشير إلى اضطراب شخصية الشعراء من حيث حديثهم مع الشياطين وأنهم يُلقون القول على ألسنتهم وهو في عرف التحليل النفسي أقرب إلى حالة الجنون؛ سماع المرء لنفسه وهو يتحدث، أو بالأحرى انقسام الذات إلى ذاتين، ما يجعل الشاعر أبعد ما يكون عن المعقولة والتحكّم في الذات و القدرة على تنظيم عالم الأشياء، فهو يترك ما ينتابه يتدفق دون قيد عقل أو ضمير، فلا يعرف ما إذا كانت

هناك حقائق فيما يقوله أم أن الشاعر يواجه عالما ذاتيا يعرف كيف يستدعيه تأليفا وتصويرا وكيف يجعله فضاءات ساحرة مثيرة للذكريات وباعثة على الحيرة، يتشابه الشعر والجنون في كونه انفلات من سلطه العقل ورغبة في إعادة التشكيل والتسمية، الرغبة في امتلاك الذات واستنطاق الغائب ودعوته للحضور، تحطيم العالم وإعادة تشكيله في صور فاتنة تغرينا لحظة عن العالم العادي المألوف، وكل هذا من عمل المخيلة المجنونة التي تبني عالما لا عقلانيا يظهر فيه الموضوع: "في الشعور كحقيقه غريبه منفصلة عن مجرى الوعي الحاضر والماضي، ومن ثم فإن فعل الوعي السلبي لا بد من أن يعتمد الى إدراجه في عالم اللاواقعي" (محمد، 2014، صفحة 15)، عالم من عناصر لغوية وتخييلية وإيقاعية وجمالية تؤثر بقوة على المتلقي وتعمل على إغوائه وخلخله ذاكرته وبسط توثراته، وإشباع رغباته اللاواعية، مما يدخل المتلقي في دوامة الشاعر ومتهاته السرية.

وهذا التصنيف المعرفي القرآني للشعر العربي الجاهلي ومحددات القول فيه انبنى أساسا على الرؤية القرآنية الجديدة للحياة الفكرية والأخلاقية والاجتماعية للإنسان العربي خاصة، وللمسلم بصفة عامة، حيث نصّ على ضرورة تعديل أفق التصورات نحو أدبٍ موحّدٍ قوامه الإيمان والعمل الصالح كأدوات لبناء المعرفة السليمة الهادفة والبناءة، وهو يرى أن القارئ الجديد في المجتمع المؤمن يستلزم شعرا أو أدبا مناسباً لذوقه الجديد ولآفاقه الكونية المستجدة، وأن كل إنتاج خارج عن دائرة العضوية الإيمانية هو منبوذ وغير مستساغ وفيه عودة لحكم الجاهلية ومخاطره القبلية.

ثم إن المعايير والقوانين والقيم التي جاء بها الإسلام ترفض التفكير الجاهلي القبلي المنحرف، القائم على العناد والظنّ والتشكيك والمراوغة والسخرية من الدين الجديد من خلال الخلط بين التأليف الشعري متنا وأسلوبا وذوقا مع النصّ القرآني وتغييب الحدود الفاصلة بينهما على سبيل الادّعاء الباطل، لذا عمل القرآن على رسم أفق واضح لقراءة الشعر وجعل الإيمان والصدق والمنفعة والصالح منارة للشاعر يستضيء بها طريقه لينتج أدبا يمثل عقيدة الأمة وهويتها.

وبصيغة أدقّ ينطلق الدين الإسلامي في تصوّراته من أعماق نقطة سرّية في الكائن وهي النوايا؛ منبع كلّ سلوك وعمل، وإصلاح منطقة النوايا وفق معتقدات صحيحة وخيرة يمدّ الكائن صحّة نفسية ومنهجاً سليماً في الحياة ومنطقاً سليماً في التفكير، لذا أكّد أن الوجهة الصحيحة لإصلاح الأدب عامة والشعر خاصة لا يكون إلّا بغرس عقيدة التوحيد والإيمان في النفوس أولاً، ومحبة الناس والمجتمع ثانياً، ومراقبة الذات وتقويمها ثالثاً، والسعي بإخلاص نحو الإصلاح وغرس القيم الإيجابية دوماً، ذلك هو موقف القرآن في الجانب الإبداعي والفني، فيه رؤية سليمة وغايات شريفة، وفق مبدأ رقابة مسؤولة على عوالم فكرية وفنية يفترض أن تكون بدورها مسؤولة، والعمل على تجنب المجتمع الإسلامي الجديد العودة إلى ما كانت عليه العرب من عشوائية وفوضى وتخبط وضلالة زمن الجاهلية.

خاتمة

1- يلاحظ في الشعر الجاهلي بُعد التجزيئي حيث يختزل الوجود في بعده المادي (الطبيعة، الكائنات، الجسد، السماء) لذا لم تتعدّ رؤيته ما هو مادي محسوس، وانحصر خياله وحده حول هذا العالم

المنظور، فجاء الإسلام ليفتح للشاعر عالم الغيب عبر بوابة الإيمان، ويحرّر الروح من عالم الكمّ والأوهام وانتفاخ الذات إلى عوالم أخرى أشد أصالة وتماسكا.

2- لقد بُني الإسلام على قاعدة المسؤولية، لذا خصّ الشعراء بسورة كاملة لمسؤوليتهم الجسيمة على الحياة الجماعية المشتركة، ولقدرتهم الفائقة على الإبداع والتواصل والسيطرة على المتلقين، وذهب في هذه السورة إلى تبيان حال الشعراء ومن سلك مسلكتهم المنافية للعقل والمنطق السليم من الكهانة والأباطيل وقول الزور والضلالة والعنف والهجاء والقبح في أعراض الناس، وهي نتاج للثقافة الجاهلية الشفهية التي تجعل الأسماع في تبعية تامّة لألسنة الشعراء، وكانت النفوس تنقاد لما يبينه الشعراء من عوالم يختلط فيها السحر بالقيم القبلية، لكن حين فاجأ الإسلام العرب بكتاب القرآن الكريم انقلبت المعادلة من الشفاهية الباعثة على التبعية والتقليد إلى الكتابة والقراءة والتعلّم القائمة على النقد والإقناع، وقد أعاد هذا النصّ الجديد تشكيل علاقة الإنسان بالعالم، فانتقل من رؤية أفقية تحددها سلطة الجماعة والشاعر، إلى رؤية عمودية يكون فيها الخطاب الإلهي مصدراً للمعرفة وتنظيم الحياة والوجود، ومن هذا المنطلق وجّه القرآن الخطاب الشعري نحو اليقظة والمسؤولية، داعياً الشعراء إلى تحمّل أعباء أخلاقية وفكرية أوضح، وإلى التزام الضوابط الشرعية التي تكفل النظام والمصلحة العامة.

3- اقتضت عقيدة التوحيد تعديل التصورات القديمة للإنسان العربي وتوجيهها وجهة عقلانية أكثر منطقية وثباتاً، فعمل بذلك على تجاوز ما هو جاهلي ومأثور إلى ما هو إنساني ومعقول، فلم يعد بمقدور الشاعر الجاهلي- وهو الذي ارتبط نشاطه بالسحر والكهانة والجنون وعالم الشياطين - المساهمة في استرداد إنسانية الإنسان وتحقيق مجتمع التعاون والتكافل والحوار، بعد ما ظلّ رداً من الزمن يعمل على بث نوازع الصراع والقتل والظلم، ويمارس مختلف أساليب التضليل والتمييز والتخويف، لذا جاء الإسلام لإزالة هذه المحلّفات الذهنية السلبية بنوازعها وعواقبها برؤية نقدية يتمّ من خلالها رسم الحدود القارة للظاهرة الشعرية، وتسخيرها لحمل رسالة الإسلام الخالدة، وتهيئتها لنشر أصول الاعتقاد السليم عن طريق التحقّق وعدم الانصياع لأهواء أهل الكفر والجهالة في التقليد واتباع العقائد الفاسدة.

4- يلاحظ من الموقف القرآني اضطراب صورة الشاعر وانحطاطها، حيث رفض القرآن الجمع بين صورة النبوة الدينية ومصادر تلقيها للخطاب وشيطان الصوت الكامن في الشاعر، وتأثير كلّ خطابٍ على الفئة المستهدفة، فالنبوة تحمل رسالة وشريعة لغاية إصلاح الناس وتقويم السلوك، على خلاف الشاعر الذي يُعاني من اضطراب رؤاه ومن سيطرة الأهواء والانفعالات وتمكّن أحلام اليقظة وأوهام الحسّ منه، فيعمل على تصويرها وإخراجها في أجمل هيئة ليسلب بها العقول ويهيج بها النفوس فإذا هي له تبع، تسير على هداه وتنزل منازلها، مسلوبة الوعي، وفي آذانها وقر عن سماع غيره، شأنهم في ذلك شأن المجنون الذي لا يقوى على الاهتمام لقوة قاهرة تمنعه عن ذلك، وكأن بالقرآن يؤكّد أن الشعر يُعطل ملكة العقل ويشلّ قدراته على أعمال الفكر وممارسة النقد، ففيه طاقة صوتية تشلّ الأسماع وتشوّش على الأذهان وتضعف القدرات العقلية، فتسيطر على الإنسان العواطف والانفعالات الشديدة والخيالات البعيدة التي تؤدي بدورها إلى تأثيرات نفسية سلبية تجعل صورة

الشاعر أقرب إلى الكهانة والسحر والجنون، والمدمن على سماع الشعر يمنع نفسه من الاهتمام إلى خطابات أخرى أكثر عقلانية وصرامة فكرية.

5- في ضوء التصادم الحاصل بين عقيدة الكفر والإيمان لا سيما في بداية الدولة الإسلامية الناشئة التي شهدت إهانة المسلمين ومحاصرتهم ومصادرة أملاكهم ومحاربة عقيدتهم وما صاحبها من سجال شعري أذكى روح المغالبة بين المعسكرين، وكشف في الوقت نفسه عن ضحالة عقائد الجاهليين وهشاشتها؛ من غياب للعقل ومباهاة بديانة الأجداد القائمة على الشرك والغموض والتقليد الأعمى، لذا تولّد وعي جماعي بضرورة إزاحة المعتقدات القديمة من شبه الجزيرة العربية واستبدالها بدين التعقل والحصافة لبلوغ ذرى الحياة الروحية وقمة مدارج الكمال الإنساني، ولتحقيق النصر النهائي للعقيدة الجديدة تكفل الخالق بتوجيه الشعر [الأداة الأكثر استعمالاً] نحو التربية السليمة المبنية على التفكير والرؤية والتأمل بحيث يأتي الإيمان بالخالق في صدارة السلوكيات الاعتقادية، واعتناق الأعمال الصالحة كنهج ثابت في الحياة للاقترب من الله وتحسين العلاقات الإنسانية الضامنة للرفق والاستقرار الاجتماعي.

6- تمّ استبدال العالم الواقعي في علاقته باللغة بالعالم الروحي ورموزه وما ترتب عنه من تغيير في ثنائية الحقيقة والإحالة [واقع خارج التجربة الإنسانية]، وما ينتج عنه من تساؤلات حول طبيعة المعرفة التي تحملها تلك النصوص ومدى قدرة الذهن على استخلاص الدلالة والاستقراء الدقيق للخطاب، ومن هنا كان الخطاب القرآني مستحوذاً على العقل العربي مستفزاً إياه بمسألة الإعجاز والبلاغة والبيان متجاوزاً بذلك إمكانات الشعر وحدود القول فيه.

قائمة المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش بن نافع.
1. برتراند رسل. (2023). تاريخ الفلسفة العربية الكتاب الأول (الفلسفة القديمة). (زكي نجيب محمود، المترجمون)، د.ط، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
2. عبد السالم الرفوع خليل. (31 ديسمبر، 2021). أثر الشعر الجاهلي والقرآن الكريم في البناء الفني للصورة اللغوية. مجلة كلية اللغة العربية، مج39(ع1)، صفحة 2246، 2220.
3. كارل غوستاف يونغ. (1996). التنقيب في أغوار النفس. بيروت: المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
4. جواد علي. (2001). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار الساقية.
5. دريد بن الصمة. (د.ت). الديوان. (تح: عمر عبد الرسول، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.
6. مخلوف سعاد. (2020). دور القرآن الكريم في تحقيق التوازن النفسي لدى الفرد دراسة ميدانية لست حالات. مج5(ع2). صفحة 236، 260.
7. الشبّة محمد. (2014). مفهوم المخيال عند محمد أرغون. الجزائر: منشورات الاختلاف.